البلاغة بين مراعاة مقتضى الحال والخروج عليه

الدكتور/ عزالدين علي مختار علي(١)

ملخص البحث

يهدف هذا البحث وفقاً لمنهج وصفي تحليلي استقرائي إلى الإجابة عن السؤال الذي يشير إلى أن البلاغة بلاغتان: إحداهما تراعي مقتضى الحال،وأخراهما تخرج عليه،وإلى تبيان أي هاتين البلاغتين أرفع مقاماً،وذلك من خلال أدوات إجرائية تتمثل في عرض النصوص النظرية بإضاءتها مرة،ومراجعتها مرة أخرى،وعرض النصوص القرآنية والأدبية مع تحليلها والوقوف على أسرارها البلاغية وخصائصها الجمالية لانزياحها عن النمطية التعبيرية،وانحرافها عن النسقية المعيارية. وخلص البحث إلى نتائج مثبتة في نهايته،كما تضمن عدداً من التوصيات وثبتاً بالمصادر والمراجع. أما الكلمات المفتاحية فهي: مقتضى الحال،مقتضى الظاهر،الانزياح أو الخروج عليهما.

Abstract

According to analytical descriptive approach, this research is aimed at answering the question indicating the two types of rhetorics: one takes the case into consideration and the other is out of it; and to explain which of these rhetorics highly ranked using aprocedual tools to review and shed alight to the theoretical literary texts; and to analyze the Quranic and literary texts in order to identify their rhetorical secrets and aesthetic characteristics because for its shifting away from the stereotypical expression and deviation from the systematic standard. The research concluded with proven results at the end of the research, as well as a number of recommendations along with the sources and references. The key words are: state (condition) prerequisite; deflection.

(١) أستاذ الأدب والنقد المشارك – جامعة النيلين.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المقدمـــــة

يحاول هذا البحث- وهنا تكمن أهميته- أن يعيد النظر في تعريف البلاغة التي قيل بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع أن هناك أساليب بلاغية لا تراعي مقتضى الحال بل وتخرج عليه،هادفاً من وراء ذلك إلى تبيان أن البلاغة ليست مستوى واحداً وإنما مستويات،وإلى تبيان المستوى الأرفع بلاغة منها،وإلى تبيان المقصود بالحال ومقتضى الحال،وإلى تبيان الفرق بين مقتضى الحال ومقتضى الظاهر،مستنداً في تحقيق هذه الأهداف إلى منهج استقرائي يستفتي النصوص الواصفة ويستقرئ النصوص المؤسسة بأدوات نظرية وإجرائية ولغوية،مشتغلاً على أربعة أساليب بلاغية واردة في متن البحث.

ويتنزل هذا البحث ليجيب عن السؤال الجوهري البلاغة أهي مراعاة لمقتضى الحال أم خروج عليه؟ ثم ليجيب عن أسئلة فرعية أخرى من قبيل: ما مفهوم الحال؟ وما مفهوم مقتضى الحال؟ وما مفهوم مطابقة الكلام لمقتضى الحال؟ وأيهما أرفع بلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال أم الخروج عليه؟ يحاول هذا البحث أن يقدم إجابات كافية عن كل هذه الأسئلة بشيء من التقصي والتجذير والتطبيق.

ولقد ترسخ في الحقل البلاغي تعريف بلاغة الكلام بأنها "مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[1]،فما المراد بالحال ومقتضى الحال اللذين وردا في هذا التعريف؟ إن المراد بالحال "الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص أي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما هو مقتضى الحال مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيده والتأكيد مقتضاها"[2].

ويبدو من خلال ما تقدم أنه ثمة ثلاثة عناصر: المتكلم وهو هنا البليغ والكلام المخصوص المطابق وهو هنا المقتضى ثم الحال الخارجي أو الموقف الذي يطابقه ذلك الكلام المخصوص. فإذا أردت أن أفهم مصطلح (مقتضى الحال) فلابد أن أنظر إلى صيغة المضاف (مقتضى) فأجدها بصيغة اسم المفعول فهو الكلام المخصوص بهذا الحال المعين وهذا الكلام المخصوص هو مقتضى الحال أي ما اقتضاه الحال المعين وعلى هذا يكون الحال مقتضيا (بصيغة اسم الفاعل) للكلام أن يأتي على هذا الأسلوب

(١) القزويني " الإيضاح في علوم البلاغة " دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢،٢٠١٠م،ص٢٠.

(٢) التفتازاني " المطول " دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢،٢٠٠٧،ص١٥٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

المخصوص الذي هو المقتضى.

يقول الهاشمي في هذا الصدد موضحا كلا من الحال ومقتضاه " وحال الخطاب - ويسمى المقام - وهو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة والمقتضى - ويسمى الاعتبار المناسب - هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة مثلا - المدح - حال يدعو لإيراد العبارة على صورة الإطناب،وذكاء المخاطب حال يدعو لإيرادها على صورة الإيجاز،فكل من المدح والذكاء حال ومقام،وكل من الإطناب والإيجاز مقتضى،وإيراد الكلام على صورة الإطناب والإيجاز مطابقة للمقتضى"(١).

أما فيما يتصل بمطابقة الكلام لمقتضى الحال فيبدو أنها قد انحصرت في فهم البلاغيين في مطابقته لحال المخاطب دون مطابقته لحال المتكلم،الأمر الذي حدا بأحد البلاغيين المعاصرين إلى أن يقول بأن المطابقة تعني في المقام الأول مطابقة حال المتكلم "والذي أريد أن أقرره أن المطابقة تعني أولاً المطابقة لحال النفس والشعور ولذلك يكون التهويل والكذب على النفس مخالفا للمطابقة وخارجا عن حد البلاغة.المطابقة إذن تعني الصدق والوفاء بما في النفس"(٢).

ولعل ما ذهب إليه أبو موسى من الأهمية بمكان ومن ثم ينبغي أن ينظر إليه بعين الاعتبار؛ لأن مراعاة المتكلم لمقتضى الحال وحده يجعل البلاغة مقصورة على مراعاة الموقف الخارجي الذي يتحكم في إضفاء صفة البلاغة فقط على الكلام الذي يراعي فيه صاحبه هذا الموقف الخارجي ولكن بالمقابل هذا المفهوم للبلاغة يجرد المتكلم منها ومما يتمتع به من ذوق وإحساس قادر على أن يجعل البلاغة تنحصر في الكلام ذاته دون أن يكون مطابقا لمقتضى الحال بل مطابقا لداخله النفسي وتقديره الشعوري في اختيار الأسلوب الفني الجمالي الذي يتعالى على مراعاة مقتضى الحال وحري بفلسفة البلاغة أن تتحرر من السجن الخارجي الذي حبست فيه نفسها أمدا طويلا أعني مراعاة مقتضى الحال الذي ظل مسيطرا على منح من يراعيه صفة البلاغة دون غيره - أن تتحرر من ذلك السجن من أجل أن تضفي صفة البلاغة كذلك على الكلام الذي لا يراعى فيه مقتضى الحال وعلى الكلام الذي يراعي فيه صاحبه شعوره

(١) السيد أحمد الهاشمي " جواهر البلاغة " المكتبة العصرية،بيروت،٢٠١٠،ص٤١.

(٢) د.محمد محمد أبو موسى "خصائص التراكيب" مكتبة وهبة،القاهرة،ط٧،٢٠٠٦،ص٧٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وإحساسه الداخلي.

فمن البدهي أن البليغ -وكذلك الشاعر- في كثير من الأحيان في تواصله لا يستهدف مجرد إفهام المتلقي المعنى الذي يريد أن يوصله إليه حين يراعي مقتضى الحال الذي يفرض عليه الكلام على عواهنه في حين أن شعوره الداخلي يفرض عليه أن يلقي الكلام في عبارة فنية تتحلى بالجمال والتأثير والإدهاش ففي هذه الحالة لمن يستجيب: للموقف الخارجي أم للموقف الداخلي؟ في تقديري أنه لابد أن يستجيب للموقف الداخلي النفسي الذي ينزع بالكلام إلى أن يؤدي وظيفة مزدوجة في نفس المتلقي تتمثل في الجمال والتأثير،تلك الوظيفة التي يعجز الكلام العادي أن يؤديها ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ " أن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام وإنما يدل حسن الكلام،وإحكام صنعته،ورونق ألفاظه،وجودة مطالعه،وحسن مقاطعه وبديع مباديه،وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه"(١).

ومما يؤكد أن أبا هلال كان حريصا على هذين العنصرين: التأثير في نفس المتلقي عن طريق الجمال في التعبير هو تعريفه للبلاغة حيث عرفها بأنها " كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة؛ لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقاً لم يسم بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"(٢).

فإذا أردت أن أقارن بين تعريف القزويني للبلاغة الوارد في صدر البحث وتعريف العسكري تجلى لي أن القزويني قد اشترط في بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال وأن العسكري قد اشترط الحال الداخلي والجمال الفني الذي عبر عنه بالمعرض الحسن والصورة المقبولة اللذين يتم بهما إبلاغ المعنى قلب السامع(التأثير) وتمكينه في نفسه كتمكنه في نفس المتكلم.

أخلص من ذلك إلى أن البلاغة قد تقتضي أحيانا مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد تقتضي أحيانا أخرى مطابقة المقتضى الشعوري لدى المتكلم الذي يشترط جمال العبارة وحسن الصورة وكلتاهما تعد بلاغة في بابها بل قد يتحد في كثير

(١) أبو هلال العسكري "الصناعتين" المكتبة العصرية،صيدا. بيروت،١٩٨٦،ص٥٨.

(٢) المصدر السابق،ص٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

من الأحيان الموقفان الداخلي والخارجي فيأتي الكلام مطابقا لمقتضيهما وذلك ـ على سبيل المثال ـ حين " يكون المقام داعيا إلى التنويه برجل نتحدث عنه أي حين تنفعل نفسك بمآثره وأخلاقه تقول: هو الرجل،فتذكره معرفا بهذه الأداة التي تكسبه في سياق العناية به وصف الرجولة الصادقة الكاملة وكأنك توهم أن الرجولة بكل أوصافها تتحقق فيه ويشتهر بها حينئذ تقول: إن التعريف جاء مطابقا لمقتضى الحال أي مقتضى المقام لأن المقام يتطلب التنويه والإشادة لما هتفت دواعي النفس بذلك فوقع الكلام وفيه خصوصية تعين على إفادة هذا المعنى"(١).

ومن بداهة القول أن الشعر يعد الفن الأدبي الذي يخالف مقتضى الحال من ناحية ويطابق مقتضى الشعور من ناحية ثانية وذلك ـ على سبيل المثال ـ أن المرأة التي وصفها امرؤ القيس بنعومة الجسم وبضاضته لا يمكن أن تكون بالمستوى الذي عبر عنه في قوله(٢):

من القاصرات الطرف لو دب محول

من الذر فوق الإتب منها لأثرا

ومن ثم فإن امرأ القيس لم يطابق في كلامه الشعري مقتضى حال المرأة المتمثل في نعومة جسمها وإنما طابق مقتضى شعوره الذي أراه فوق ما رأى من هذه البضاضة فقد جعله يقول: (دب) ولم يقل (مشى) لأن الدبيب خفي لا يكون معه صوت ثم أثبت هذا الدبيب إلى محول أي نملة عمرها عام ثم بين من أي جنس هي بقوله (من الذر) أي من صغار النمل ثم لم يكن الدبيب من هذا النمل الصغير ذي العام الواحد على جسم المرأة مباشرة وإنما على ثوبها الحريري الرقيق ثم كان لهذا الدبيب مع كل هذه الأوصاف تأثير في جسم هذه المرأة الأمر الذي ينفي أن يكون حال هذه المرأة في لطافة جسمها ورقته متطابقا وهذا الكلام الشعري ومن ثم لم يبق إلا أن نذهب بالقول إلى أن هذا الكلام الشعري طابق فيه صاحبه شعوره وإحساسه الذي أراه نعومة جسم هذه المرأة على هذه الصورة التي فيها انحراف عما هو مألوف في بضاضة الجسم ورقته.

وصفوة القول في هذه المحطة من البحث أنه في كثير من الأحيان ولا سيما في الفن الشعري قد يراعى الشعور الداخلي أكثر من الحال الخارجي فيأتي الكلام

(١) د. محمد محمد أبو موسى "خصائص التراكيب" ص٧١.

(٢) امرؤ القيس "ديوانه" ص ٢١.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مخالفا للحال الخارجي مخالفة كبيرة ولكنه مطابق للشعور الداخلي مطابقة تامة فيكون الكلام بليغا جميلا مؤثرا لأن فيه خروجا على المألوف وانزياحا عن مطابقة مقتضى الحال وكسرا للمعيار بل إنني أرى أن مطابقة الكلام مطابقة كاملة للموقف الخارجي ليس من البلاغة في شيء أو على الأقل تعد بلاغة من الدرجة الثانية كما أذهب إلى أن مراعاة مقتضى الحال ينبغي ألا ينظر إليها على كونها شرطا في بلاغة الكلام كما هو سائد وإنما ينبغي أن ينظر إليها على أنها شرط في بلاغة المتكلم لأن الكلام قد يوصف بالبلاغة مع أنه لم يراع فيه مقتضى الحال.

إن البلاغة يمكن أن تصنف باعتبار المقام إلى مستويين: مستوى يراعي مقتضى الحال وهو مستوى معياري استنبط باستقراء كلام العرب وبه اقترن تعريف البلاغة عند كثير من البلاغيين ومستوى ذو شقين: شق تخرج فيه البلاغة عن مقتضى الحال وآخر تخرج فيه عن مقتضى الظاهر. أما فيما يتعلق بالمستوى الأول فقد أكد البلاغيون أن لكل مقام مقالا وأن مقامات الكلام متفاوتة " فمقام التشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب... وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر "(١).

وهذا التفاوت في مقام الكلام ودواعيه يستوجب أن يختلف أسلوب المقال بحسب المقام ونوعه ويتجلى ذلك في عبارتهم "لكل مقام مقال" والمقام الوارد في هذه العبارة يعرف بالمقام الخارجي أو سياق الموقف أو المقام الاجتماعي الذي يقتضي مقالا أو كلاما يتلاءم معه ويتناسب. وهناك عبارة أخرى من الأهمية بمكان ترد مقرونة بتلك العبارة الأولى هي "لكل كلمة مع صاحبتها مقام"(٢) وهي عبارة تشير إلى السياق الداخلي أو اللغوي بحيث تستدعي الكلمة أختها التي تناسبها هذا من جانب وهي عبارة ـ من جانب آخر ـ لا تفهم على أنها متحررة من مقتضى الحال الذي يقتضي مصادفة الكلام لما يليق به " فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريه عن مؤكدات الحكم وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن

(١) السكاكي "مفتاح العلوم" دار المكتبة العلمية،بيروت ـ لبنان،ط٢،٢٠١١،ص٢٥٦.

(٢) المصدر السابق،ص ٢٥٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفا وقوة وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه وإن كان المقتضى إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره..."[1].

غير أني أذهب إلى أن المقام قد يتحكم في أن يكون الخطاب ملائما له أما أن يتسلط المقام في تفاصيل هذا الخطاب ودقائقه أي في نظم مفرداته وصياغة علاقاته التركيبية والدلالية فلا أتصور أن تبلغ سلطة المقام هذا الحد لأن صياغة هذه العلاقات من اختصاص المتكلم الذي لا محالة يختلف عن غيره في اختيار مفردات اللغة وطريقة تركيبها حين يكون المقام الذي يتحدثان فيه واحدا وهذا أمر معيش مشاهد ومهما يكن الأمر " فلقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة "[2].

وقد قسم البلاغيون الخبر باعتبار المخاطب إلى ثلاثة: ابتدائي ويلقى على مخاطب خالي الذهن وطلبي ويلقى على مخاطب حاله التردد وإنكاري ويلقى على مخاطب حاله الإنكار ومن هنا اختزلت البلاغة في أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال أي في علم المعاني دون علمي البيان والبديع مع أن الكلام قد يخرج في كثير من الأحيان على مقتضى الحال أفلا يعد الخروج على مقتضى الحال بلاغة؟

إن الجواب عن هذا السؤال ينقلني إلى المستوى الثاني في شقه الأول حيث تتزاحم عدة مصطلحات تكاد تكون ذات مدلول واحد يأتي على رأسها: الخروج والعدول والانحراف والانزياح ويظهر أن الخروج على مقتضى الحال أمر عرضي طارئ ليس بأصل كمطابقة مقتضى الحال التي وقف البلاغيون عليها جهدهم وفي غضون هذا الاهتمام بمطابقة الكلام لمقتضى الحال أهمل الخروج على مقتضى الحال اللهم إلا من إشارات هنا وهناك وعندي أن كون خروج الكلام على مقتضى الحال أمرا عرضيا طارئا لا يعني أنه أقل درجة في البلاغة من الكلام

(١) المصدر نفسه،٢٥٦،٢٥٧.

(٢) د. تمام حسان " اللغة العربية معناها ومبناها" عالم الكتب،القاهرة،ط١٩٩٨،٣م،ص٣٣٧.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الذي يطابق مقتضى الحال لأن البلاغة تزداد سحرا وألقا ودرجة كلما انزاحت عن السائد والمألوف والنسق والمعيار.

وأسوق - تدليلا على ما أذهب إليه - نصا للسكاكي يشير فيه إلى هذا المستوى المهمل من البلاغة " هذا ثم إنك ترى المفلقين السحرة في هذا الفن ينفثون الكلام لا على مقتضى الظاهر كثيرا ذلك إذا أحلوا المحيط بفائدة الجملة الخبرية وبلازم فائدتها علما محل الخالي الذهن عن ذلك لاعتبارات خطابية مرجعها تجهيله بوجوه مختلفة"(١).

واستقراءً لهذا النص الوجيز يلاحظ أن الانحراف بالكلام عن مقتضى الحال لا يقدر عليه إلا أولئك السحرة المفلقون الذين أوتوا موهبة وملكة في فن الكلام نثرا كان أو شعرا تمكنهما أن يأتوا بالعجيب من الكلام حتى كأنه نفث السحر وذلك لأنهم ينفثون الكلام في مخاطبهم على وجه لا ينبغي أن يكون له كأن يخاطبوا العالم بغرضي الخبر الرئيسين فائدته ولازم فائدته: خطاب الخالي الذهن بحيث يأتي الكلام ابتدائيا يخلو من كل ما يوحي بأن الكلام لا يتوجه إلى عالم بفائدة الخبر ولازم فائدته على الحقيقة وإنما يتوجه إلى من هو خالي الذهن فيكون ثمة افتراق وتباين بين الخطاب ومقتضى الحال.

ويبدو أن الداعي إلى ذلك لا يرجع بطبيعة الحال،إلى سياق الموقف أو الحال الخارجي وإنما يرجع إلى موقف المتكلم الشعوري من أجل تحقيق غايات معنوية ونفسية وفنية وذلك لسبب وجيه يتمثل في ان المتكلم إذا كان قد راعى مقتضى الحال لجاء كلامه متطابقا معه غير أنه لم يراع مقتضى الحال بل راعى مقتضى حاله هو المتمثل في شعوره وذهنه ومن هنا يمكن أن أقول إن المتكلم حر في الاختيار - اختيار أن يطابق كلامه مع مقتضى الحال أو اختيار أن يخالف كلامه مع مقتضى الحال ويعد المتكلم - وكذلك كلامه - بليغا في كلا الاختيارين.

" وكذلك قد ينزل منزلة المنكر من لا يكون إياه إذا رأوا عليه شيئا من ملابس الإنكار فيحوكون حبير الكلام لهما على منوال واحد كقولك لمن تصدى لمقاومة مكاوح (مقاتل) أمامه غير متدبر مغترا بما كذبته النفس من سهولة تأتيها له: إن أمامك مكاوحا لك...ويقلبون هذه القضية مع المنكر إذا كان معه ما إذا تأمله ارتدع عن الإنكار فيقولون لمنكر الإسلام الإسلام حق"(٢).

(١) السكاكي " مفتاح العلوم " ص٢٥٦.

(٢) المصدر السابق،ص٢٦٢-٢٦٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

يتناول النص هذه المرة إنزال غير المنكر منزلة المنكر وإنزال المنكر منزلة غير المنكر ومن المعلوم بداهة أن المنكر يخاطب بخطاب يختلف في طبيعته عن الخطاب الذي يخاطب به غير المنكر ولكن عند إنزال أحدهما منزلة الآخر يلقى الخطاب عليهما على منوال واحد بحيث يجوز أن يتوجه إليهما معا فإذا كان المخاطب منكرا ولكن المتكلم أنزله منزلة غير المنكر جاء كلامه وكأنه موجه إلى المنكر أي بلا تأكيد وإذا كان المخاطب غير منكر ولكنه أنزل منزلة المنكر جاء الكلام وكأنه موجه إلى المنكر أي بتأكيد فإذا روعي في الأول مقتضى الحال توجه الخطاب إلى غير المنكر وإذا لم يراع توجه إلى المنكر وإذا روعي في الثاني مقتضى الحال توجه الخطاب إلى المنكر وإذا لم يراع توجه إلى غير المنكر.

إذن الخطاب المصوغ على نسق واحد ولم يكن مراعى فيه مقتضى الحال احتمل أن يكون موجها إلى مخاطبين يختلفان حالا وموقفا وإذا كان مراعى فيه مقتضى الحال تعين أن يكون موجها إلى مخاطب خاص. استنادا إلى ذلك التحليل يمكن أن أخلص إلى أن صاحب الخطاب المصوغ على نسق واحد المحتمل أن يكون موجها إلى مخاطبين يختلفان موقفا وحالا أرفع بلاغة من نظيره صاحب الخطاب الموجه إلى مخاطب خاص وأن خطاب ذلك الأول أصعب في تحليله وتأويله من خطاب الأخير.

ويعود السبب في هذه الصعوبة - في ظني - إلى أن الخطاب المحتمل لمخاطبين مختلفين موقفا وحالا يحتاج منا في تحديد المخاطب به إلى معرفة السياق الخارجي المتصل بالأحوال والقرائن والأمارات اللفظية والمادية والحالية التي تتصل بالمخاطب من قريب أو بعيد والتي تكشف لنا عن أن صاحب هذا الخطاب قد ساقه إلى هذا مساقه إلى ذلك لأن كل أولئك يدلنا على أن هذا الخطاب أو ذاك قد خرج على مقتضى الحال وأن صاحبه قد أنزل مخاطبه منزلة مخاطب آخر أضف إلى ذلك ما يحدثه هذا النمط الكلامي في النفوس والعقول من أثر حين تقع على كلام يخاطب به غير مخاطبه أو يرسل إلى غير صاحبه ومن ثم فمن " المؤكد أن افتقاد المقام يؤدي إلى ورود مفردات متناثرة لا تمثل مقالاً بالمعنى اللغوي أو بالمعنى البلاغي؛ لأنها لم توضع في سياق يربط بين أجزائها بحيث تؤدي في النهاية معنى معيناً ،وعلى هذا لو قمنا

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بتحليل هذه المفردات من حيث مستوى الصوت أو الصرف أو النحو،أو من حيث علاقة اللفظ بمدلوله فلن نصل أبداً إلى دلالة محددة لافتقاد السياق أو المقام الذي يعطي البعد المكاني،وافتقاد الحال الذي يعطي البعد الزماني للصياغة"[1].

ولعل السبب في إهمال هذا المستوى من البلاغة وعدم التركيز عليه يرجع إلى أنه مستوى لا يقوم على أصول ولا يستند إلى معايير محددة ولا يعتمد على قواعد مضبوطة مقررة كما هو الشأن في المستوى الذي تراعى فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال الأمر الذي جعل البلاغيين يدورون في فلك هذا المستوى ويهملون المستوى المضاد الذي لا تراعى فيه المطابقة لمقتضى الحال مما يؤكد أن البلاغة العربية ما زالت حبيسة في سجن المعيارية والشكلانية والصناعة وهذه جميعا لا تستطيع أن تتحكم في المستوى المضاد لأنه لا يستند إلى قاعدة أو قانون يمكن تقعيده كما صنعوا بالمستوى الأول.

كذلك مما يقوي صعوبة هذا المستوى الذي ينزاح عن مقتضى الحال أنه " فن لا تلين عريكته ولا تنقاد قرونته بمجرد استقراء صور منه وتتبع مظان أخوات لها وإتعاب النفس بتكرارها واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها بل لابد من ممارسات لها كثيرة ومراجعات طويلة مع فضل إلهي من سلامة فطرة واستقامة طبيعة وشدة ذكاء وصفاء قريحة وعقل وافر"[2].

وأما فيما يتصل بالشق الثاني من هذا المستوى وهو ما يخرج الكلام فيه على مقتضى الظاهر فينبغي أن أشير إلى التفريق بين مصطلح (مقتضى الحال) ومصطلح (مقتضى الظاهر) فأقول إن بينهما خصوصا وعموما وذلك أن مصطلح (مقتضى الظاهر) أخص من مصطلح (مقتضى الحال) فما مفهوم مقتضى الظاهر؟

يبدو أن المراد بـ (مقتضى الظاهر) المعنى الذي يدل عليه ظاهر التركيب النحوي وهو ما يعرف بالمعنى النحوي أو المعنى المقالي وإذا كان هذا المراد بـ(مقتضى الظاهر) فإن المراد بالخروج على مقتضى الظاهر أن يدل الكلام على معنى آخر غير المعنى النحوي يستفاد من القرائن والأحوال والظروف التي أحاطت بالكلام وهنا يكون للكلام معنيان أو أكثر: معنى قريب يدل عليه الكلام بظاهر مفرداته المركبة التي تقتضي هذا المعنى وهو ما يعرف

(١) د. محمد عبد المطلب "البلاغة والأسلوبية" الشركة المصرية العالمية،القاهرة،ط١،١٩٩٤،ص٣٠٨.

(٢) السكاكي "مفتاح العلوم،ص٢٦٣.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

بالمعنى الأول ومعنى بعيد لا يوقف عليه من خلال ظاهر الكلام وإنما عن طريق المعنى الأول الذي تجد فيه معنى ثانيا تصل إليه بالاستدلال كما هو الشأن في المجاز والكناية أو عن طريق المقام الذي صاحب إنتاج الكلام وهذا يعرف بالمعنى الثاني وهذا يعني " أن للنحو دلالات مجردة هي معانيه وأحكامه وأنها معان أول تنجز في المقام المخصوص فيتولد منها معان ثوان اقتضاها ذلك المقام المخصوص فالمعاني الأول نحوية لفظية مقالية والثواني نحوية سياقية مقامية مقالية أو بلاغية أو هي بحسب المحدثين تداولية"[1].

وعلى ضوء ذلك التحليل فإن المعنى الثاني الذي يخرج إليه التعبير لا يمكننا أن نصل إليه بفك الشفرة اللغوية لهذا التعبير وتبيان علاقة الكلمة بأخواتها فهذا التشريح يصل بنا إلى المعنى الأول ولكن بالوقوف على الموقف الخارجي الذي يقال فيه هذا التعبير إذ هو يفرض على هذا التعبير أن يخرج على مقتضى ظاهره وأن يشير - من ثم - إلى المعنى الثاني المقصود.

أحب أن أعطي مثالا حيا متداولا في السودان قد طرق الأسماع كثيرا في الآونة الأخيرة وهو قولهم "فلان يكسر الثلج" فإن المعنى الأول المباشر لهذا التعبير هو إثبات تكسير الثلج لفلان هذا غير أن المراد ليس هذا المعنى الأول خاصة أن هذا التعبير أصبح يقال في سياق معين هو مكان العمل الرسمي الذي لابد فيه من رئيس ومرؤوس حيث يقال عن الثاني إنه يكسر الثلج للأول فيخرج الفعل (تكسير الثلج) من الفعل الحسي المباشر إلى فعل ذهني معنوي لأن من يقوم بتكسير الثلج هنا لا يقوم به فعلا ومباشرة وإنما يقوم به قولا وتزلفا وتملقا ونفاقا فكأن انزياح هذا التعبير عن سياقه إلى سياق العمل الرسمي تبعه انزياح عن معناه الأول إلى معناه الثاني.

بعد هذا التقديم،يجدر بي أن أخصص الأساليب التي فيها خروج أو انزياح عن مقتضى الظاهر والتي يبغي هذا البحث دراستها دراسة تحليلية ذلك لأن الحيز المتاح لهذا البحث لا يسعف بدراسة تستوعب كل الأساليب التي فيها انزياح أو انحراف عن مقتضى الظاهر لأن ذلك يعني دراسة البلاغة كلها إذ تقوم معظم مباحثها على أساس الانزياح بمعناه الواسع[2]. ومن هذه الأساليب التي يريد

(١) د.خالد ميلاد "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة" المؤسسة العربية،تونس،ط٢٠٠١،١٠،ص٣٨٦.

(٢) ينظر د. يوسف أبو العدوس "الأسلوبية الرؤية والتطبيق" دار المسيرة،عمان.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

البحث أن يعنى بدراستها ما يلي:

١. انزياح الخبر عن مقتضى الظاهر.

٢. انزياح الإنشاء عن مقتضى الظاهر.

٣. التعبير بالماضي عن المستقبل.

٤. التعبير بالمستقبل عن الماضي.

١. انزياح الخبر عن مقتضى الظاهر:

لقد عرفنا في محطة سابقة من هذا البحث انزياح الخبر عن مقتضى الحال بأن يخاطب بغير ما ينبغي أن يخاطب به لأن المتكلم أنزله منزله مخاطب آخر أما في هذه المحطة فنريد أن نتعرف على انزياح الخبر عن مقتضى الظاهر. فمن المفروغ منه أن للخبر عند إلقائه غرضين أصيلين هما فائدة الخبر ولازم الفائدة ولكن كثيرا ما يخرج الخبر إلى معان وأغراض تستنبط عن طريق تحليل المقامات والقرائن والسياقات التي تكتنف الخبر.

إن الأغراض والمعاني التي يخرج إليها الخبر من الكثرة والتعدد والكثافة بحيث لا يمكن أن يحاط بها حصرا ومن ثم ينبغي ألا يعتد بمحاولة البلاغة القاعدية حصر هذه المعاني والأغراض ومما يؤخذ على البلاغة القاعدية كذلك أنها تكتفي بذكر مثال أو شاهد لكل معنى دون أن تعمل على تحليل هذا الشاهد أو ذاك بغية أن تضع يد الباحث على الطريقة التي يمكن بها أن يصل إلى المعنى الذي خرج إليه الخبر في هذا المثال أو ذاك الأمر الذ جعل البلاغة تؤول إلى مجرد صناعة كالنحو تماما فتخرج جيل على يدي هذه البلاغة القاعدية عاجز من جانبين: عاجز عن أن ينشئ كلاما بليغا وعاجر عن أن يحلل كلاما بليغا،وهما - في ظني - الوظيفتان الجوهريتان المبتغتان من تدريس البلاغة إما أن تخرج بليغا مبدعا أو أن تخرج بلاغيا محللا.

فعلى سبيل المثال فقد ذكر أحمد الهاشمي إظهار الضعف بوصفه معنى أو غرضا انحرف إليه الخبر ثم ذكر مثالا لهذا الغرض قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]،وقد اكتفى بهذه الطريقةِ في جميع المعاني التي خرج إليها الخبر[١] دون تحليل يكشف عن أن هذه الأخبار قد انزاحت عن مقتضاها الظاهر.

أقول إن هذا البحث مهمته أن يضطلع بذلك المنهج- منهج التحليل فإذا نظرنا في الآية وجدناها تخاطب ربِّ العزة على لسان زكريا عليه السلام ويستشف من توجيه الخطاب أو الخبر إلى ربِّ العزة أن الخبر

(١) ينظر السيد أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة" ص٥٦.

الأردن،ط٧،٢٠٠٧م،ص١٩٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

قد خرج بداهة عن غرضيه الأساسين: فائدة الخبر؛ لأن ربَّ العزة أعلم بحال رسوله حتى قبل أن يخاطبه،ولازم الفائدة لأن الخبر في بنيته اللغوية لا يستند إلى ضمير المخاطب الذي يوحي بأن المخاطب يعلم بحاله وبأنه علم أن المتكلم عالم بحاله كذلك. ويلاحظ أن الخبر في هذين الغرضين ينتقل من الذات إلى الآخر أو من الداخل إلى الخارج وليس الأمر كذلك في الآية فإن الخبر يخرج من الذات المتكلمة ليرتد إليها مرة أخرى وإذا كان الأمر كذلك فإن الغرض من الخبر غرض ذاتي شعوري يتمثل في تعبير المتكلم عن ضعفه وخشوعه ووحدته وقلة حيلته يتجلى ذلك في النداء الخفي الذي يوحي بالانكسار والتذلل والخضوع والتضرع بين يدي الله قبل أن يسأله شيئا وقد فعل زكريا كل ذلك ثم ذكر مسألته المتمثلة في قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً﴾ [مريم: ٥].

٢. انزياح الإنشاء عن مقتضى الظاهر:

كذلك من الأساليب التي تنحرف عن مقتضى الظاهر أسلوب الإنشاء الطلبي الذي تندرج تحته أربعة أساليب هي: الاستفهام والأمر والنهي والنداء فإن كل أسلوب من هذه الأساليب يخرج عن معناه الحقيقي إلى عدد من المعاني والأغراض الأخرى التي يوقف عليها بقراءة السياق الذي يكتنف الخطاب أو المقال قراءة عميقة شاملة وبما أن البحث لا تسمح طبيعته بأن يستقصي المعاني التي يخرج إليها كل أسلوب فإنه سيقتصر على أسلوب واحد هو الاستفهام عسى أن يكون في تناوله غنية عن بقية الأساليب بوصفه تناولا يستهدى به.

إن مفهوم الاستفهام الحقيقي أو الاصطلاحي هو"طلب الفهم وهو استخبارك عن الشيء الذي لم يتقدم لك علم به"[١]. لقد اشتمل هذا المفهوم على شرط جوهري لا يكون الاستفهام على حقيقته إلا به هذا الشرط هو جهل المتكلم بما يستفهم أو يسأل عنه فما هو الشرط في خروج الاستفهام عن مقتضاه الظاهر؟ أقول جوابا عن هذا السؤال إن الشرط هنا عكس الشرط هناك وهو علم المستفهم بما يستفهم عنه " فمعرفة المخاطب بأن ما ورد السؤال عنه معلوم للمتكلم غير مجهول هي الدليل على أنه يبتغي من هذا الأسلوب غرضا آخر وهذا يبدي أن تحليل هذه الأساليب واكتشاف معانيها لا يتأتى في حال فصلها عن

(١) د. فضل حسن عباس "البلاغة فنونها وأفنانها . علم المعاني" دار الفرقان،عمان . الأردن،ط١٩٨٩،٢،ص١٦٨.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الأطراف التي يتداول بينهم هذا الأسلوب لكونها السبيل إلى التوصل إلى المعاني التي عبرت عنها فلولا افتراض أن المخاطب يعلم أن المتكلم لا يجهل ما يسأل عنه لما كان من الممكن أن يفهم أن الاستفهام خرج عن معناه الأصلي إلى معنى غيره"(١).

ولا ريب أن المتلقي غير المباشر لا يمكن أن يتوصل إلى المعاني التي يخرج إليها الاستفهام بمجرد معرفته لهذا الشرط الأول المتمثل في علم المستفهم بما يستفهم عنه ولا بمجرد تشريح التركيب المنجز الذي يتضمن الاستفهام أي الاكتفاء بسياق المقال وحده وإنما لا بد من أن يصاحبه سياق المقام بمفهومه الشامل الأمر الذي يساعد في التوصل إلى المعنى وتجذيره في العقل والقلب معا وحين يكتفي المحلل البلاغي بمثل هذا النظر الفوقي السطحي يفشل في تعيين المعنى المنشود فقد فشل الهاشمي في اقتناص معنى الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]،إذ ذهب إلى أنه الوعيد(٢).

وعندي أن هذا المعنى إذا أمعنا النظر لا يستقيم مع الآية من وجهين:

الأول: أن الوعيد معنى لا يكون إلا في المستقبل والآية تلفت النظر إلى حدث عقابي ماض.

الثاني: أن المخاطب هو رسولنا عليه الصلاة والسلام ومن ثم لا يقع في تصور مسلم أن الوعيد موجه إليه ـ صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا فإن المعنى المراد ـ في رأيي ـ من الاستفهام الوارد في الآية هو التقرير والتثبيت والتذكير والتطمين لأنه قد علم ـ عليه السلام ـ بما حل بعاد عن طريق الوحي ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

هذا،والتقرير الذي ينزاح إليه الاستفهام يأتي بمعنيين "بمعنى التحقيق والتثبيت وقد يقال بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه"(٣) ويعرفه ابن هشام قاصرا إياه على المعنى الثاني المذكور في النص السابق بأنه "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه ويجب أن يليها الشيء الذي يقرره به تقول في التقرير بالفعل: أضربت زيدا؟ وبالفاعل: أأنت ضربت زيدا؟ وبالمفعول: أزيدا ضربت؟

(١) د. بان الخفاجي "مراعاة المخاطب في النحو العربي" دار الكتب العلمية،بيروت ـ لبنان،٢٠٠٨،ص٢٥٩.

(٢) ينظر أحمد الهاشمي "جواهر البلاغة" ص٨٤.

(٣) التفتازاني "المطول" ص٤١٩.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كما يجب ذلك في المستفهم عنه"[1].

ويبدو لي أن التقرير حين يأتي بمعنى التحقيق والتثبيت والتأكيد فإن هذه المعاني تكون من قبل المتكلم الذي يريد أن يثبت هذه المعاني في ذهن المخاطب ويحققها ويؤكدها مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]،فإن الله تعالى أراد أن يثبت هذا المعنى في قلب الرسول الكريم ويحققه ويقويه في نفسه ويؤكده ويمن عليه بذلك أي بأن شرح له صدره عليه السلام ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]،فإن فرعون يريد أن يذكر موسى عليه السلام بهذه التربية ويثبتها في عقله ويؤكدها ويقويها ويحققها ويمن بها عليه ولعل التقرير يكون بهذا المعنى حين يكون الفعل صادرا من المتكلم أو حين يكون المتكلم فاعلا له إذ فاعل الشرح في الآية الأولى هو الله وفاعل التربية في الآية الثانية هو فرعون.

أما حين يأتي التقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف فإن المخاطب يكون متهما في نظر المتكلم بأنه مرتكب الفعل ولذا يعمد المتكلم إلى إسناد الفعل إلى ضمير المخاطب بغية أن يحمله على الإقرار والاعتراف بأنه مرتكب الفعل " فإن قلت: أأنت فعلت ذلك كان غرضك أن تقرره بأنه الفاعل يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمرود: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]،لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ولكن أن يقر بأنه منه كان وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم " أأنت فعلت هذا " وقال هو عليه السلام في الجواب بل فعله كبيرهم هذا ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلت أو لم أفعل) "[2].

٣. التعبير بالماضي عن المستقبل:

من المعلوم أن الإخبار عن الحدث الماضي يقع في زمان بعد زمان وجوده حيث تتحد بنية الفعل ودلالته في الدلالة على الزمان الماضي غير أن بنية الفعل الماضي كثيرا ما تخرج عن دلالتها الصرفية على الزمن الماضي إلى الدلالة على المستقبل وذلك حين يحتويها سياق يشعر بمعنى المستقبل ويحدث حينئذ انفصال بين بنية الفعل ودلالته فتظل البنية ماضية ولكن تصبح من حيث المعنى دالة على المستقبل

(١) ابن هشام الأنصاري " مغني اللبيب " دار الطلائع،القاهرة،١/٤٠.

(٢) عبد القاهر الجرجاني " دلائل الإعجاز" دار المعرفة،بيروت.لبنان،ط١٩٩٤،١، ص٨٩.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

وهو ما يعرف بالتعبير بالماضي عن المستقبل أو بخروج الفعل عن مقتضى الظاهر. ومن السياقات التي تخرج الفعل الماضي من دلالته على الزمن الماضي إلى الدلالة على الزمن المستقبل ما يلي:

أ/ سياق الطلب:

إن سياق الطلب ينحرف بالفعل الماضي إلى الدلالة على المستقبل لأن مفهوم الطلب هو أن يطلب تحصيل ما ليس بحاصل وسأقصر الحديث على الدعاء بوصفه واحدا من أنواع الطلب والدعاء معناه "طلب فعل شيء أو الكف عنه بشرط أن يكون في الحالتين من أدنى لأعلى"(١).

هذا،والفعل الماضي الدال على الدعاء ومن ثم على المستقبل يأتي بطريق الإثبات كأن نقول: غفر الله لك وبطريق النفي كأن نقول: لا نامت أعين الجبناء ففي المثال الأول ندعو للمخاطب طالبين من الله أن يغفر له وفي المثال الثاني دعونا على الجبناء طالبين بألا تنعم أعينهم بالنوم والفعل الماضي في كلا المثالين دال على المستقبل لأن الدعاء من الطلب و هو طلب تحقق أمر لم يكن متحققا عند الدعاء كالغفران أو طلب ألا يتحقق أمر كان متحققا قبل الدعاء وعنده كطلب ألا تهنأ أعين الجبناء بالنوم وقد يكون الدعاء للمخاطب نحو قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]،وللغائب نحو قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]،وللمتكلم نحو: غفر الله لي. ويأتي الدعاء على ضربين: الدعاء بالخير نحو: رحمك الله والدعاء بالشر نحو: أخزاه الله.

"ومن آية القصد في اللغة ألا يحتاج الفعل هنا إلى النقل من صيغة الماضي إلى الحاضر لأن المعنى بالبداهة معلق بالاستقبال وفي بقائه على صيغة الماضي يشعر بقوة الأمل في الاستجابة كأن ما يرجى أن يكون قد كان وأصبح من المحقق المستجاب و لاشك أن هذا المعنى مقصود لأنه لم يأت عن عجز في اللغة ولا يمتنع على قائل أن ينقله إلى صيغة المضارع إذا شاء"(٢).

غير أن التعبير عن الدعاء بصيغة المضارع لا يفيد ما يفيده التعبير عنه بصيغة الماضي لأن التعبير الأول ليس فيه خروج على مقتضى الظاهر بعكس التعبير الثاني هذا من ناحية،ولأن التعبير

(١) عباس حسن "النحو الوافي" دار المعارف،القاهرة،ط٤،٢٠٠٨،٣٦٨/١٤.

(٢) العقاد "اللغة الشاعرة" نهضة مصر،القاهرة،١٩٩٥م،ص٦٦.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

الأول ـ من ناحية ـ لا يشعر بأن ما يرجى أن يكون قد أصبح في حكم المستجاب المحقق إذ الإشعار بهذا المعنى اللطيف يختص به التعبير الثاني لأن فيه انحرافا عن مقتضى الظاهر من زاويتين: من زاوية كونه انحرافا بالفعل الماضي عن دلالته على الزمن الماضي إلى الدلالة على الزمن المستقبل،من زاوية كونه انحرافا عن التعبير بالخبر إلى الإنشاء إذ تعبير كهذا ينظر إليه على أنه خبر من حيث بنيته السطحية ولكنه إنشاء أو دعاء من حيث بنيته العميقة فهو ماض وخبر ومستقبل وإنشاء في آن واحد فهو إذن تعبير يتسم بتعدد المعنى: مستقبل في حكم الماضي وإنشاء في حكم الخبر وماض في حكم المستقبل وخبر في حكم الإنشاء ومن ثم فإن "خروج القول من صيغة الإخبار إلى صيغة الإنشاء فيه تقوية أشد لدرجة التأكيد إذن ثمة سلمية تحكم قيس حالة المخاطب الذهنية فيرد القول مستجيباً لها على المقتضى المطلوب"(١).

ب/ سياق الحديث عن الأمور المحتم حدوثها:

إن كل مطلع على القرآن الكريم يجده يصدق هذا السياق في كثير من آياته لا سيما حين يتناول يوم القيامة وأهواله فلنقف مستعرضين بعضا من هذه الآيات حتى ينجلي الأمر.

١ـ قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

يلاحظ أن الفعل (أتى) من حيث الصيغة فعل ماض ولكن من حيث الدلالة مستقبل وثمت قرينة صرفت هذا الفعل من دلالته على المضي إلى الدلالة على المستقبل هي الجملة بعده (فلا تستعجلوه) التي تمنع أن يفهم الفعل الماضي (أتى) على ظاهره إذ يستحيل أن يستعجل ما مضى وولى وإنما الذي يستعجل ما سيأتي أو ما لم يأت بعد ولقد أسند الفعل الماضي إلى فاعله (أمر الله) الذي لم يأت بعد لأنه محتم أن يأتي وبما أنه كذلك عبر عنه بصيغة الماضي فهو لحتمية إتيانه غدا في حكم الذي أتى.

وقد ينظر إلى التعبير عن المستقبل بالماضي في هذا السياق من زاوية أخرى فها هو ابن الأثير يقول عن هذا التعبير: "وفائدته أن الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه كان ووجد وإنما يفعل ذلك إذا

(١) د. صابر الحباشة "مغامرة المعنى . من النحو إلى التداولية" دار صفحات،دمشق،ط١،٢٠١١،ص٤٣، ٤٤.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها"(١).

ولعل أهم ما في هذا النص إشارته إلى أمرين:

الأول: الغرض من الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل ويتمثل في التأكيد على تحقق هذا الفعل المستقبل وأنه بمنزلة الفعل الماضي في حصوله.

الثاني: السياق الذي يرد فيه التعبير ويتمثل في كون الفعل المستقبل من الأمور العظيمة التي يستعظم وجودها ولا يتصور وقوعها.

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٩-٧٠].

كل هذه الأفعال أو الأحداث في هذه الآية لم تقع بعد ولكن صياغتها تنقلها إلى المحيط الذي وقع وذلك تأكيدا على حتمية وقوعها إذ هي من الأفعال العظيمة التي يستعظم الناس وجودها ولا يتصورون حدوثها فجاء التعبير عنها بالفعل الماضي لئلا يشك أو يفكر في إمكان وقوعها إذ "ليس من شك في أن صيغة الماضي ألقت على الأحداث طابع الحكاية المروية وكأن ذلك قد وقع وأنت تسمع تلك القصة التي تملأ قلبك إشفاقا وخشية هذا الأسلوب لا يدعك تفكر في إمكان وقوع الأحداث كما يكون الحال لو جاء بصيغة المضارع وإنما يدعك تفكر في الأحداث حين صيرها واقعا يروى ونقلها من الممكن الذي سيكون "(٢).

فهو مشهد مستقبلي لم يوجد بعد ولكنه سيوجد حتما لذا عبر عنه بصيغة الماضي فنقل ما سيكون إلى ما كان ثم تأمل هذه الأفعال المتوالية المبنية للمجهول (وضع ـ جيء ـ قضي ـ وفيت) الأمر الذي يشعر بأن هذه الأفعال قد فرغ منها تماما وفي سرعة خاطفة وكأني بالبناء للمجهول يزيد في دلالة الماضي على المضي والانقضاء وبالتالي على الحدوث.

خلاصة الأمر أن القصد من الانزياح في التعبير عن المستقبل بالفعل الماضي هو " أن هذه الأحداث متحققة الوقوع مقطوع بحصولها بمنزلة الفعل الماضي فكما أنه لا شك في حدوث الفعل الماضي الذي تم وحصل كذلك لا شك في حدوث هذه الأفعال إذ هي بمنزلة الفعل الماضي في تحقق الوقوع "(٣).

(١) ابن الأثير " المثل السائر" دار الكتب العلمية" بيروت ـ لبنان،ط١، ١٩٩٨، ٤١٩/١.

(٢) د. محمد محمد أبوموسى "خصائص التراكيب" ص٢٦٨.

(٣) د. فاضل صالح السامرائي " معاني النحو" شركة العاتك،ط٢، ٢٠٠٣، ٢٧٢/٢.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

٤/ التعبير بالمستقبل عن الماضي:

يأتي هذا التعبير على عكس التعبير السابق غير أن كليهما بليغ لأن فيهما انحرافا عن مقتضى ظاهرهما فالتعبير بالمستقبل عن الماضي أبلغ من التعبير عنه بالمضارع والتعبير بالماضي عن المستقبل أبلغ من التعبير عنه بالفعل الماضي لأن التعبيرين المفضولين ليس فيهما انزياح عن مقتضى الظاهر وقد سبق أن قلنا إن التعبير الذي فيه خروج على مقتضى الظاهر أبلغ من الذي في تطابق معه.

" اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي"(١).

إن في التعبير عن ماض بمضارع ما ليس في التعبير عن ماض بماض لأن في التعبير الثاني مجرد إخبار عما مضى دون أن يتضمن أي معنى آخر في حين أن التعبير الأول يتمتع بقدر من البلاغة والإبلاغ إذ القصد منه ليس مجرد الإخبار عما مضى إذ لو كان القصد منه مجرد ذلك لجاء التعبير عنه بالفعل الماضي لا بالفعل المضارع فإذا كان ذلك كذلك كان لا بد أن يكون من وراء التعبير بالمضارع عن الماضي غرض أو معنى بلاغي فما هو؟ هذا المعنى أو الغرض هو أن الفعل المضارع يوضح الحال التي وقع فيها الحدث ويستحضر هيئته حتى كأن المتلقي يشاهد الحدث ويعايشه ويتفاعل معه لأن المتكلم يكون قد ألقى بالمخاطب في قلب الحدث ولولا هذا الانزياح في التعبير بالفعل الماضي عن الماضي إلى التعبير عنه بالمضارع لما كان هذا المعنى إذ كل انزياح عن تعبير إلى تعبير آخر لا بد أن يكون وراءه غرض أو معنى بلاغي ولنضرب على هذا التعبير مثالا واحدا في كل من القرآن والشعر والنثر.

أ/ القرآن الكريم:

يشيع التعبير بالمضارع عن الماضي في القرآن الكريم كثيرا من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

من ملاحظة سريعة يتجلى أن السياقين السابق واللاحق للفعل (تثير) ماض مما يؤكد أنه عدل إليه عن ماض هو (أثارت) لغرض بلاغي هو استحضار لتلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة

(١) ابن الأثير " المثل السائر" ٤١٦/١.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

أي "صورة إثارة السحاب مسخرا بين السماء والأرض على الكيفية المخصصة والانقلابات المتفاوتة وذلك لأن المضارع مما يدل على الحال الحاضر الذي من شأنه أن يشاهد كأنه يستحضر بلفظ المضارع تلك الصورة ليشاهدها السامعون ولا يفعل ذلك إلا في أمر يهتم بمشاهدته لغرابة أو فظاظة أو نحو ذلك"(١).

ب/ الشعر:

ومن ذلك قول تأبط شرا:

بأني قد لقيت الغول تهوي

بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت

صريعاً لليدين وللجران

"فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها مشاهدة للتعجيب من جراءته على ذلك الهول ولو قال (فضربتها) عطفا على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة... ألا ترى لما قال تأبط شرا (فأضربها) تخيل للسامع أنه مباشر للفعل وأنه قائم بإزاء الغول وقد رفع سيفه لضربها وهذا لا يوجد في الفعل الماضي لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلا قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه"(٢).

ج/ النثر:

ومن ذلك حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه - في غزوة بدر فإنه قال: " لقيت عبيدة بن سعيد بن العاص وهو على فرس وعليه لأمة كاملة لا يرى منه إلا عيناه وهو يقول: " أنا أبو ذات الكؤوس وفي يدي عنزة فأطعن بها في عينه فوقع وأطأ برجلي على خده حتى خرجت العنزة متعقفة "(٣).

يقول أبو موسى تعليقا على هذا الحديث: "الأفعال في هذه القصة كلها قد وقعت قبل زمن حكايتها ولكن الحاكي - رضي الله عنه - عبر عن بعض هذه الأحداث بصيغة المضارع التي تشير إلى أن الحدث يقع الآن قال (وأطعن بها في عينيه) وكان قياسه أن يقول (فطعنته) كما قال (لقيت عبيدة) ولكن هذا الجزء من المعنى - أعني طعنه هذا الفارس المستلئم الذي كان مدلا باقتداره - عمل جليل من الزبير رضي الله عنه - فحرص على إبرازه واستحضار صورته شاملة يراها من يسمعه من خلال العبارة التي استطاعت أن تنقل مشهد الحدث من واقعه الذي عبر إلى مقام الحضور وكذلك قوله (أطأ) "(٤).

ونستجلي من عرض هذه

(١) التفتازاني "المطول" ص٣٤١.
(٢) ابن الأثير "المثل السائر" ٤١٨/١.
(٣) المصدر السابق،٤١٧/١.
(٤) د. محمد محمد أبو موسى "خصائص التراكيب" ص٢٦٤،٢٦٥.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

النصوص أن الإخبار عن الأحداث التي فيها جاء بعد زمن حدوثها أي أنها أحداث ماضية وقعت وانقضت وولت غير أن المتكلم في غضون الإخبار رأى أن يعبر عن بعضها بصيغة الفعل المضارع مما يشعر أنها أحداث تتسم بقدر من الخصوصية والتميز بوصفها مستغربة أو مهمة عند المتكلم ومن ثم عبر عنها بصيغة المضارع من أجل أن يجعل المخاطب يزداد تفاعلا مع الحدث وكأنه يعايشه ويشاهده يحدث بين يديه وأمام ناظريه حيا مستحضرا من ماضيه الغابر.

ولا يسعني في منتهى هذا البحث الذي لا أدعي له الوصول إلى المبتغى المنشود فهو مازال مفتوحا إلا أن أثبت النتائج التي تمخض عنها في النقاط التالية:

١- إن التعريف السائد للبلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته فيه نظر؛ لأن مراعاة مقتضى الحال ينبغي ألا ينظر إليها على أنها شرط في بلاغة الكلام وإنما ينبغي أن ينظر إليها على أنها شرط في بلاغة المتكلم إذ الكلام قد يتسم بالبلاغة مع أنه لم يراع فيه مقتضى الحال؛ ولأنه من زاوية أخرى تعريف قصر البلاغة على علم المعاني دون أن يشمل العلمين الآخرين: علم البيان وعلم البديع.

٢- إن البلاغة باعتبار المقام ذات مستويين: مستوى يراعي مقتضى الحال وهو معياري به اقترن تعريف البلاغة عند كثير من علمائها،ومستوى ذو شقين: مستوى فيه خروج على مقتضى الحال وآخر فيه خروج على مقتضى الظاهر وأن هذا المستوى بشقيه أرفع بلاغة من المستوى الأول.

٣- إنه ثمة فرق جوهري بين مصطلحي (مقتضى الحال) و(مقتضى الظاهر) مطابقة وانزياحا مع أن بينهما علاقة عموم وخصوص فمقتضى الحال مصطلح يحيل إلى سياق الموقف الخارجي الذي يجوز أن يراعى وألا يراعى ومقتضى الظاهر مصطلح يحيل إلى السياق اللغوي الداخلي الذي يجوز أن يكتفى بظاهره وأن يخرج عليه فقد يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال ولكنه مخالف لمقتضى الظاهر أو يكون مخالفا لمقتضى الحال ولكنه مطابق لمقتضى الظاهر أو يكون

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

مخالفا أو مطابقا لهما معا.

٤- إن انزياح الكلام عن مقتضى الحال المتمثل في إنزال مخاطب منزلة مخاطب آخر لم يأخذ حظه في الحقل البلاغي من الدرس والتحليل والاستقصاء كما أخذ الكلام المطابق لمقتضى الحال وذلك لأنه مستوى من البلاغة لا تستطيع البلاغة المعيارية القاعدية أن تخضعه للتقنين والتقعيد.

٥- هناك صلة عضوية وطيدة جدا بين الأساليب التي فيها انزياح عن مقتضى الظاهروالمعاني الثواني ذلك أن هذه الأساليب تتسم بهذه المعاني الثواني المتعددة الهاربة.

٦- إن البلاغة الفنية تستهدف غايتين جوهريتين: الأولى خلق جيل بليغ مبدع له مقدرة فائقة في إنتاج كلام بليغ والثانية خلق محلل بلاغي ذي ذوق رفيع لماح يستطيع أن يوقفنا على مواطن البلاغة التي نعجز عن استجلائها في كثير من النصوص الحية الرفيعة.

التوصيات

من التوصيات التي يمكن أن يوصي بها هذا البحث في ضوء النتائج التي خلص إليها ما يأتي:

١. مراجعة مقولة أن البلاغة نضجت حتى احترقت؛ لأنها مقولة تصادر التجديد والتفكير والبحث،ولعل ما يدحض هذه المقولة ظهور مصطلح البلاغة الجديدة.

٢. تخصيص دراسة عن التعبير بالماضي عن المستقبل في القرآن الكريم خاصة؛ وذلك لأن هذا الأسلوب يعد سمة بارزة فيه.

٣. تدريب الطلاب - نفياً للتلقين - على تذوق النصوص الأدبية الرفيعة، واكتشاف أسرارها البلاغية، ومواطن الجمال فيها.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن الأثير - "المثل السائر" دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢. ابن هشام الأنصاري - "مغني اللبيب" دار الطلائع،القاهرة، (د-ط).

٣. أبو هلال العسكري- "الصناعتين" المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٩٨٦م.

٤. أحمد الهاشمي - "جواهر

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com

البلاغة" المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت،٢٠١٠م.
٥. بان الخفاجي – "مراعاة المخاطب في النحو العربي" دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٨م.
٦. التفتازاني – "المطول" دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢،٢٠٠٧م.
٧. تمام حسان – "اللغة العربية معناها ومبناها" عالم الكتب،القاهرة،ط٣،١٩٩٨م
٨. خالد ميلاد – "الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة" المؤسسة العربية،تونس،ط١،٢٠٠١٠م.
٩. السكاكي – "مفتاح العلوم" دار المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠١١م.
١٠. صابر الحباشة – "مغامرة المعنى ـ من النحو إلى التداولية" دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط١،٢٠١١
١١. عبد القاهر الجرجاني – "دلائل الإعجاز" دار المعرفة،بيروت،ط١،١٩٩٤م.
١٢. عباس حسن – "النحو الوافي" دار المعارف،القاهرة،ط١٤،٢٠٠٨م.
١٣. العقاد – "اللغة الشاعرة" نهضة مصر،القاهرة،١٩٩٥م.
١٤. فضل حسن عباس – "البلاغة فنونها وأفنانها ـ علم المعاني" دار الفرقان،عمان،ط٢،١٩٨٩م.
١٥. فاضل صالح السامرائي – "معاني النحو" شركة العاتك،ط٢،٢٠٠٣م.
١٦. القزويني – "الإيضاح في علوم البلاغة" دار الكتب العلمية،بيروت،ط٢،٢٠١٠م.
١٧. محمد عبدالمطلب – "البلاغة والأسلوبية" الشركة المصرية العالمية،القاهرة،ط١،١٩٩٤م.
١٨. مد مد أبو موسى – "خصائص التراكيب" مكتبة وهبة،القاهرة،٢٠٠٦م.
١٩. يوسف أبو العدوس – "الأسلوبية الرؤية والتطبيق" دار المسيرة،عمان، ط٧،٢٠٠٧م.

PDF created with pdfFactory trial version pdffactory.com